إحياء التراث في عادات ليلة الحنة: دراسة مقارنه بين القاهرة والخرطوم

أ. إيمان لطفي إبراهيم البابلي(*)

أ.د. سعد بركة (**) أ.د. سلوى درويش (***)

• مُلخص:

تُسلّط هذه الدراسة الضوء على الدور الحيوي الذي تؤديه الأنثروبولوجيا المرئية في إحياء التراث الثقافي غير المادي المتعلق بعادات ليلة الحنة، بوصفها طقسًا نسويًا غنيًا بالرموز والدلالات، وخصوصًا في البيئتين الثقافيتين المختلفتين لكل من القاهرة والخرطوم. وتأتي أهمية الدراسة في سياق طغيان الرواية الذكورية وهيمنة التمثيلات النمطية على المشهد الثقافي، مما أدى إلى تهميش التراث النسائي، خصوصًا المرتبط بالمناسبات الطقسية التي تُعبّر فيها النساء عن هويتهن وتجلياتهن الجمالية والاجتماعية.

تركّز الدراسة على ليلة الحنة بوصفها مجالاً طقوسيًا تتقاطع فيه عناصر الأداء الجسدي والرمزي والاجتماعي، حيث تقوم النساء بأداء طقوس مثل رسم الحناء، الغناء، الرقص، التجميل، ارتداء الملابس التقليدية، وغيرها من الممارسات التي تتضمن نقلًا ثقافيًا ومعرفيًا عابرًا للأجيال. ويتم توثيق هذه الممارسات من خلال أدوات الأنثروبولوجيا المرئية، مثل الفيلم الإثنوجرافي، الفيديو الرقمي، والصور الوثائقية، مما يسمح بقراءة الفضاءات النسوية وممارساتها كـ"نصوص بصرية" تعبّر عن هوية المرأة وانخراطها في المجال الثقافي.

وقد تم اختيار القاهرة والخرطوم كمجالين للدراسة المقارنة، لما يتمتع به كل منهما من تراث غني وتنوع في التعبيرات الثقافية المرتبطة بالحياة الاجتماعية والنسوية. ففي القاهرة، تظهر ليلة الحنة كحدث يمزج بين التراث الشعبي والحداثة، بينما في الخرطوم، لا تزال بعض عناصر الطقس تُمارس بطريقة أكثر جماعية واحتفاءً بالهوية الإثنية والقبلية. وتكشف الدراسة كيف تختلف الرموز، الأهازيج، الزينة، ودلالات اللون والنقوش، بين المجتمعين، مما يعكس

(*) باحث دكتوراه بقسم الأنثربولوجيا بكلية الدراسات الأفريقية العليا– جامعة القاهرة

(**) أستاذ الأنثربولوجيا بكلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

(***) أستاذ الأنثربولوجيا بكلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

الفروق في البنية الثقافية والتاريخية، ويُظهر في ذات الوقت قواسم مشتركة تؤكد على البعد العابر للثقافات لهذه الممارسات.

وتعتمد الدراسة في تحليلها على نظرية التفاعلية الرمزية، التي ترى أن المعاني تُبنى من خلال التفاعل الاجتماعي، إلى جانب المقاربة النسوية ما بعد الاستعمارية، التي تهتم بكشف علاقات القوة في السرديات الثقافية وتسعى إلى استعادة أصوات النساء المهمشات. من خلال هذا الإطار النظري، يتم تحليل أداء الجسد النسائي، الزينة، الحركات، الملابس، وحتى توزيع الأدوار داخل طقس الحناء، بوصفها تمثيلات ثقافية تستحق التفكيك وإعادة القراءة.

كما تؤكد الدراسة أن الوسائط البصرية ليست مجرد أدوات توثيق، بل هي فاعل ثقافي يعيد إنتاج المعنى، ويُعيد صياغة العلاقة بين المرأة وتراثها؛ فالصورة – سواء كانت متحركة أو ساكنة – تحمل القدرة على مقاومة النسيان، وتحويل الذاكرة الشفوية إلى أرشيف مرئي يعيد للنساء دورهن كفاعلات في إنتاج الثقافة والمعرفة، لا مجرد موضوعات للتأطير البصري أو التمثيل الفولكلوري.

وتُختتم الدراسة بالتأكيد على أن الأنثروبولوجيا المرئية ليست فقط تقنية بحث، بل هي منهج نقدي تحرري، يمكن توظيفه لكشف الطبقات الخفية في الثقافة النسائية، وتمكين المرأة من إعادة كتابة سردياتها وتمثيلها الرمزي، وخاصة في طقوس مثل ليلة الحنة، التي تُعد مرآة للهوية، والروح، والذاكرة المجتمعية. وبالتالي، تُقدّم الدراسة دعوة لإعادة تأويل التراث النسائي البصري بوصفه أداة للتمكين والمقاومة، لا مجرد احتفالية فولكلورية.

الكلمات المفتاحية: إحياء التراث، ليلة الحنّة، الطقوس الشعبية، الأنثروبولوجيا المرئية، الثقافة النسوية، السرد الشفهي، الرموز الثقافية، المشاركة المجتمعية

Revival of Heritage in Henna Night Traditions
A Comparative Study between Cairo and Khartoum

Eman Lotfy Ibrahim Elbably

Prof. Dr. Saad Baraka Prof. Dr. Salwa Darwish

- **Abstract**

This study highlights the vital role that visual anthropology plays in reviving the intangible cultural heritage related to Henna Night rituals, a feminine and symbolic cultural practice, particularly in the distinct cultural contexts of Cairo and Khartoum. The significance of this research emerges within the broader framework of the dominance of male-centered narratives and the marginalization of women's memory and oral traditions, especially those embedded in ritualistic performances that express feminine identity, aesthetics, and social belonging.

The focus is on Henna Night as a ritual space where bodily performances, symbolic acts, and social interactions intersect. Women engage in traditional acts such as applying henna, singing, dancing, adorning themselves, wearing traditional attire, and more—practices that encompass cultural transmission and intergenerational knowledge. These acts are documented and interpreted using tools of visual anthropology, including ethnographic films, digital videos, and documentary photography, enabling researchers to read women's spaces and practices as "visual texts" that reflect cultural identities and embodied knowledge.

The study adopts Cairo and Khartoum as comparative fields due to their rich heritage and diverse expressions of feminine social life. In Cairo, Henna Night often blends traditional elements with modern influences, while in Khartoum, many rituals are still performed with strong communal and ethnic symbolism. The study reveals the symbolic differences between the two contexts—such as patterns of henna, musical chants, colors, and attire—while also emphasizing shared cross-cultural dimensions that bind these practices as universal expressions of womanhood and transition.

The analysis is grounded in symbolic interactionism, which sees meaning as emerging from social interactions, and is combined with a postcolonial feminist framework, aimed at deconstructing power

dynamics and recovering marginalized voices. Through this lens, the study analyzes women's bodily performance, adornment, movement, and traditional roles during the ritual as meaningful cultural representations that require decoding and reinterpretation.

Furthermore, the study emphasizes that visual media are not neutral tools of documentation but active cultural agents that produce and reproduce meaning. The visual—whether still or moving images—has the power to resist erasure and turn oral memory into a visual archive that reclaims women’s roles as cultural producers rather than passive subjects of folklore or stereotypical imagery.

The study concludes that visual anthropology is not merely a research technique, but a critical and emancipatory methodology. It offers new insights into understanding women's roles in heritage and culture while confronting symbolic marginalization. By reinterpreting visual symbols and utilizing them as analytical tools, scholars can construct feminist knowledge frameworks that reinforce cultural justice, and reframe women’s relationship to heritage as one of agency rather than objectification—particularly within the powerful symbolism of Henna Night.

Keywords: Heritage revival, Henna Night, popular rituals, visual anthropology, feminist culture, oral narrative, cultural symbols, community participation.

• مقدمة:

يُعدّ التراث الثقافي غير المادي أحد أهم أشكال الذاكرة الجماعية التي تُواجه خطر التلاشي، خصوصًا في ظل التحولات المتسارعة التي تشهدها المجتمعات المعاصرة بفعل العولمة والتحديث، حيث تطال هذه التغيرات مظاهر الحياة اليومية، لا سيما الطقوس النسوية المرتبطة بمناسبات العبور مثل الزواج. وتُعد "ليلة الحنة" إحدى أبرز هذه الطقوس التي تجسّد الانتقال الرمزي والاجتماعي من طور العزوبية إلى الحياة الزوجية، ممثلة بذلك ذاكرة جمعية نسائية غنية بالرموز والمعاني. [1]

تتجاوز ليلة الحنة في دلالتها كونها مناسبة احتفالية، لتُشكّل حقلًا أنثروبولوجيًا يستحق الدراسة والتحليل، باعتبارها نصًا ثقافيًا بصريًا تتداخل فيه الممارسات الجسدية والرمزية والتعبيرات الصوتية والبصرية. ومن خلال هذه القراءة، تُفكك الطقوس كأداء اجتماعي يعكس تموضعات النساء داخل بنية السلطة والمعنى في المجتمع المحلي. [2]

تُبرز الدراسة مقارنة بين طقوس الحنة في القاهرة والخرطوم، لما لكل من السياقين من خصوصية اجتماعية وثقافية وتاريخية؛ فبينما تتميز القاهرة بالتداخل بين التقليد والتمدن والتأثير الإعلامي، تُحافظ الخرطوم على نمط طقسي أقرب للهوية الإثنية والجماعية. هذا التباين يُشكل مدخلًا غنيًا لفهم تنوع التعبيرات الرمزية للمرأة في المجال الثقافي العربي والأفريقي. [3]

تُقدّم الأنثروبولوجيا المرئية أدوات تحليلية تُعيد الاعتبار للأداء النسوي من خلال تحليل الصورة المتحركة والثابتة، حيث لا تُعد الوسائط البصرية مجرد أدوات توثيق، بل فضاءً لإنتاج المعنى الرمزي، ولتمثيل الجسد والطقس والهُوية بصريًا، ما يجعلها منهجًا نقديًا لفهم الثقافة النسائية. [4]

---

1 UNESCO. (2003). Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage. Paris: UNESCO. p. 7.

2 Pink, S. (2013). Doing Visual Ethnography (3rd ed.). London: Sage. p. 22.

3 Ahmed, L. (2000). Women and Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate. New Haven: Yale University Press. p. 76.

4 MacDougall, D. (1998). Transcultural Cinema. Princeton: Princeton University Press. p. 59.

بفعل هيمنة الرواية الذكورية والإقصاء المؤسسي لذاكرة النساء، أصبحت الطقوس النسائية معرضة للإهمال والتهميش. لكن الوسائط البصرية تُوفر مجالًا لإعادة بناء هذه الذاكرة، حيث تُمكّن من توثيق الممارسات اليومية التي غالبًا ما تُقصى من أرشيف التاريخ الرسمي، وتُعيد تقديمها بوصفها معرفة ثقافية. [1]

تنطلق الدراسة من فرضية أن كل عنصر في طقس الحنة – من حركات الجسد إلى النقوش والزينة والأغاني – يُمكن تحليله باعتباره تمثيلًا رمزيًا يحمل دلالات جندرية وثقافية، وذلك من خلال توظيف نظرية التفاعلية الرمزية التي تُركّز على إنتاج المعنى داخل التفاعل الاجتماعي، إلى جانب المقاربات النسوية ما بعد الاستعمارية التي تُبرز علاقات الهيمنة والصوت المغيّب.

تسعى الدراسة إلى فحص كيف تصوغ النساء أداءاتهن الجسدية والرمزية في كل من القاهرة والخرطوم، وكيف تُعيد طقوس الحنة إنتاج هوية المرأة وتمثيلها كفاعل ثقافي. وفي الوقت ذاته، يُفكك البحث أدوار النساء في الطقس كجزء من مقاومة رمزية للهيمنة الذكورية والتهميش البصري السائد. [2]

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يُسهم في فتح أفق جديد لفهم الثقافة النسائية لا بوصفها فلكلورًا هامشيًا، بل كمنظومة رمزية ومعرفية قائمة بذاتها، تُعيد تشكيل مفاهيم الجندر والسلطة من خلال الممارسة اليومية للطقوس، وتُعيد الاعتبار للتراث النسائي بوصفه جزءًا من هوية المجتمع لا هامشه.

يُسهم الجمع بين المنهج البصري والتحليل النسوي في بناء خطاب نقدي بديل يعيد تموضع المرأة كمُنتجة للمعنى والمعرفة، لا كموضوع للفرجة أو التشييء. ومن خلال الصورة، يمكن تفكيك العلاقات الرمزية التي تربط الجسد الأنثوي بالفضاء الاجتماعي، وبناء سردية مغايرة عن المرأة ودورها في الثقافة. [3]

---

1 Harding, S. (1987). Feminism and Methodology: Social Science Issues. Bloomington: Indiana University Press. p. 9.

2 Abu-Lughod, L. (1993). Writing Women's Worlds: Bedouin Stories. Berkeley: University of California Press. p. 154.

3 hooks, b. (1992). Black Looks: Race and Representation. Boston: South End Press. p. 211.

تُختتم هذه المقدمة بالتأكيد على أن البحث في طقوس الحنة باستخدام أدوات الأنثروبولوجيا المرئية يُمثّل جسرًا بين المعرفة النظرية والممارسة الثقافية الحية، ويُسهم في إعادة قراءة الجسد الأنثوي والطقوس الشعبية بوصفها مساحات لإنتاج الرموز والهوية، وبالتالي إعادة صياغة العلاقة بين المرأة والتراث على نحو يُحقق العدالة الرمزية والمعرفية.

محاور البحث

يتناول هذا البحث عدة محاور أساسية تهدف إلى فهم التغييرات والتحولات التي طرأت على طقس "ليلة الحنّة" في كل من القاهرة والخرطوم، بالإضافة إلى دراسة تأثير العوامل الاجتماعية والثقافية على ممارسات هذه الطقوس في المجتمعين. تشمل المحاور الرئيسية للبحث ما يلي: [1]

1. **المحور الأول: تعريف طقس "ليلة الحنّة" وأصوله التاريخية**

هذا المحور سيغطي التاريخ الاجتماعي والثقافي لطقس "ليلة الحنّة" في كل من القاهرة والخرطوم. سنتناول جذور هذا الطقس في تقاليد المجتمعين، ودوره في تشكيل الهوية الثقافية النسائية في المجتمعات العربية والإفريقية. سيتم التركيز على معاني الحنة كرمز للانتقال من مرحلة العزوبية إلى مرحلة الزواج، وكذلك دلالاتها الرمزية في الطقوس الدينية والاجتماعية. [2]

2. **المحور الثاني: العوامل المؤثرة في تغييرات طقس "ليلة الحنّة"**

سيتم التركيز على العوامل الاجتماعية والثقافية التي ساهمت في التغييرات التي طرأت على طقس "ليلة الحنّة". يشمل ذلك العوامل السياسية، الاقتصادية، والتكنولوجية التي ساهمت في تحول شكل الطقوس والممارسات المرتبطة بها، مع مراعاة تأثير العولمة والإعلام الجديد. سنحلل كيف أن التغييرات في هذه العوامل قد أثرت على ممارسات المجتمعين في القاهرة والخرطوم، ومدى التقارب أو التباين بين المدينتين. [3]

---

1 Appadurai, A. (1996). Modernity at Large: Cultural Dimensions of Globalization. University of Minnesota Press.

2 Turner, V. (1969). The Ritual Process: Structure and Anti-Structure. Aldine Publishing.

3 Hall, S. (1997). Representation: Cultural Representations and Signifying Practices. Sage Publications.

3. المحور الثالث: التغيرات في طقوس "ليلة الحنّة" في القاهرة والخرطوم: مقارنة ثقافية

هنا، سنقوم بمقارنة تفصيلية بين طقوس "ليلة الحنّة" في القاهرة والخرطوم. سيتم التركيز على اختلافات الطقوس بين الثقافتين، بما في ذلك الأزياء، الطعام، الأغاني، والطقوس الرمزية. سنحاول فهم كيف تؤثر العوامل الجغرافية والتاريخية في تشكيل الطقوس في كل مدينة، وما هي الخصائص الثقافية التي تميز كل منهما. [1]

إشكالية الدراسة:

تُعد عادات "ليلة الحنّة" من أهم الطقوس النسائية التي تمتزج فيها الممارسات الجمالية والاجتماعية والدينية. [2]

وتتجلى الإشكالية بشكل واضح في التباين القائم بين المجتمعات المختلفة في الحفاظ على الطقس، فبينما نجد في بعض البيئات . مثل الخرطوم . تمسكًا شديدًا بالتفاصيل التراثية لليلة الحنّة، نلاحظ في بيئات حضرية أخرى . مثل القاهرة . ميلاً نحو الحداثة أو إعادة تشكيل العادات بصورة تجارية أو ترفيهية أكثر منها رمزية. كما أن المظاهر البصرية (مثل النقوش، الملابس، الأغاني، الرقصات) لم تعد محصورة في سياقها المحلي، بل باتت مزيجًا من تأثيرات ثقافية متعددة، الأمر الذي قد يؤدي إلى تآكل الخصوصية الثقافية.

من هنا، تبرز إشكالية الدراسة في رصد وتحليل أوجه التشابه والاختلاف في طقوس ليلة الحنّة بين القاهرة والخرطوم، وتفسير كيفية إعادة إنتاج هذا التراث في كل سياق، ومدى قدرة النساء على الحفاظ عليه كعنصر فاعل في بناء الهوية الثقافية. كما تسعى الدراسة إلى الكشف عن الرموز الكامنة خلف هذه الطقوس، ومدى تأثرها بالعولمة والحداثة، ودور الأنثروبولوجيا المرئية في توثيقها وتحليلها من منظور تفاعلي رمزي.

---

1 Geertz, C. (1973). The Interpretation of Cultures. Basic Books.

2 Turner, V. (1969). The Ritual Process: Structure and Anti-Structure. Aldine Publishing, pp. 101–120

أهمية الدراسة:

تتجلّى أهمية هذه الدراسة في كونها تسعى إلى **إحياء التراث الثقافي المرتبط بطقوس ليلة الحنّة** كأحد أبرز طقوس العبور النسائية، وذلك من خلال تناول مقارن بين مجتمعين عربيين أفريقيين هما: القاهرة والخرطوم، بما يمثّلانه من تنوع في الخلفية الثقافية والاجتماعية والدينية والرمزية، مع اشتراكهما في الجذر العربي والإفريقي.

1. إحياء الموروث الثقافي من منظور أنثروبولوجي بصري:

تُعد هذه الدراسة من المحاولات القليلة التي توظّف أدوات الأنثروبولوجيا المرئية (مثل التصوير الفوتوجرافي، الفيديو، تحليل الرموز البصرية) في توثيق وتحليل طقس ليلة الحنّة، بما يوفّر سجلًا بصريًا حيًّا يُسهم في حفظ التراث غير المادي، وفهم معانيه الرمزية والدينية والاجتماعية. [1]

2. تقديم قراءة مقارنة بين ثقافتين متجاورتين:

توفر الدراسة مقاربة مقارنة بين القاهرة والخرطوم، مما يكشف عن آليات التشابه والاختلاف في حفظ التراث، ويبرز كيف أن السياق الحضري أو الريفي، والطبقة الاجتماعية، والعوامل الاقتصادية، تساهم جميعها في تشكيل خصوصية الطقس في كل منطقة. [2]

3. إبراز دور النساء كفاعلات ثقافيات:

تركز الدراسة على النساء ليس فقط كمشاركات في الطقس، بل أيضًا كـ"ناقلات للمعرفة"، ومبدعات للمعاني الرمزية، ومفاوضات للتقاليد ضمن سياقات الحداثة، وهو ما يعزز الفهم الأنثروبولوجي لدور المرأة في إنتاج وإعادة إنتاج الثقافة. [3]

---

1 Banks, M. & Ruby, J. 2011. Made to Be Seen: Perspectives on the History of Visual Anthropology. University of Chicago Press, pp. 10–12.

2 Abu-Lughod, L. 1986. Veiled Sentiments: Honor and Poetry in a Bedouin Society. University of California Press, pp. 56–60).

3 Mohanty, C. T. 2003. Feminism Without Borders. Duke University Press, pp. 128–135)

4. الاستجابة لمخاطر اندثار الطقس في ظل العولمة:

تسهم الدراسة في التنبيه إلى مخاطر طمس الرموز التراثية تحت تأثير الثقافة الاستهلاكية، وانتشار النموذج الغربي في حفلات الزواج، مما يهدد خصوصية هذا الطقس ويفقده دلالاته العميقة، لا سيّما في المدن الكبرى.

5. دعم جهود التوثيق الثقافي والسياسات التراثية:

يمكن أن تُفيد نتائج هذه الدراسة صناع القرار، والمراكز الثقافية، ومؤسسات حفظ التراث غير المادي، عبر تقديم توصيات توثيقية وتعليمية تُسهم في صون هذا النوع من الطقوس الشعبية النسائية.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل طقس ليلة الحنّة في كل من القاهرة والخرطوم من منظور أنثروبولوجي مرئي مقارن، لفهم الأبعاد الرمزية والاجتماعية والثقافية المرتبطة بهذا الطقس النسائي، وتوثيق دوره في حفظ التراث غير المادي. وتتمثل الأهداف الأساسية فيما يلي:

1. تحليل الرموز والعناصر الثقافية في ليلة الحنّة:

تسعى الدراسة إلى رصد وتحليل مكونات ليلة الحنّة (كالحناء، الأغاني، الرقص، الزينة، الطقوس التمهيدية)، وتفسير معانيها الرمزية والاجتماعية في السياقين المصري والسوداني.

2. الكشف عن أوجه التشابه والاختلاف بين القاهرة والخرطوم:

يهدف إلى عقد مقارنة تفصيلية بين طقس ليلة الحنّة في الثقافتين، للكشف عن العوامل المؤثرة في تطورهما، مثل البيئة، والدين، والطبقة الاجتماعية، والتحول الحضري، والعولمة، مما يُظهر مدى تجذّر هذا الطقس في السياقات المحلية.

3. توظيف أدوات الأنثروبولوجيا المرئية في توثيق الطقس:

تسعى إلى إدماج الوسائط البصرية (صور، فيديو، رسوم توضيحية) كأدوات تحليل علمي وثائقي، وذلك لعرض صورة حيّة وشاملة للممارسات المرتبطة بليلة الحنّة.

4. تسليط الضوء على دور النساء كفاعلات ثقافيات:

تهدف الدراسة إلى إبراز الدور النشط للنساء في تصميم وتنظيم وإحياء ليلة الحنّة، وكيف يُعدّ هذا الطقس مساحة للتعبير عن الذات الأنثوية والجماعية، ومجالًا للتفاعل الاجتماعي الذي يتجاوز مجرد الاحتفال إلى إعادة إنتاج الهوية الثقافية.

تساؤلات الدراسة:

تنطلق هذه الدراسة من مجموعة من التساؤلات العلمية تكشف عن الأبعاد الثقافية والرمزية والاجتماعية لطقس ليلة الحنّة في كل من القاهرة والخرطوم.

1. ما هي العناصر الرمزية والثقافية التي تتكوّن منها ليلة الحنّة في كل من القاهرة والخرطوم؟ وما مدى تمسك المجتمعين بهذه العناصر حتى اليوم، وهل طرأت عليها تغيّرات بسبب الحداثة والعولمة؟
2. كيف تختلف طقوس ليلة الحنّة بين السياق الحضري القاهري والسياق السوداني الخرطومي من حيث الأداء، والمحتوى، والدلالات؟ وما العوامل الاجتماعية أو الدينية أو الطبقية التي تؤثر في تشكيل هذه الفروقات؟
3. ما الدور الذي تلعبه النساء في تنظيم وتنفيذ ليلة الحنّة؟ وهل تمثّل هذه الليلة مساحة للتعبير النسائي الجماعي عن الذات، أم أنها تظل خاضعة لأطر تقليدية مفروضة اجتماعيًا؟
4. كيف يمكن لتوظيف أدوات الأنثروبولوجيا المرئية أن يُسهم في توثيق وتحليل طقس ليلة الحنّة بشكل علمي؟ وما مدى جدوى هذه المقاربة في إبراز ما لا يُقال لفظيًا من معانٍ بصرية وحسية ضمن الطقس؟
5. إلى أي مدى يمكن اعتبار طقس ليلة الحنّة شكلًا من أشكال التراث غير المادي المهدد بالاندثار؟ وما الوسائل الممكنة للحفاظ عليه وتوريثه في ظل التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الحديثة؟

مفاهيم الدراسة (الإطار المفاهيمي):

يتطلب تحليل طقس "ليلة الحنّة" في سياق أنثروبولوجي مرئي مقارن بين القاهرة والخرطوم توضيح مجموعة من المفاهيم المفتاحية التي تشكل الإطار المفاهيمي للدراسة، وهي:

1. التراث الثقافي غير المادي:

يشير هذا المفهوم إلى جميع الممارسات والتصورات والمعارف التي تتوارثها الجماعات البشرية وتُشكّل جزءًا من هويتها الثقافية، مثل العادات، والطقوس، وفنون الأداء، والممارسات الاجتماعية. وقد عرّفته منظمة اليونسكو بأنه "التراث الذي لا يتخذ شكلًا ماديًا، بل يُعبّر عنه بالممارسات والتقاليد الشفوية، والمهارات المرتبطة بالحرف، والطقوس الاجتماعية الجماعية". [1]

2. الأنثروبولوجيا المرئية:

تُعد الأنثروبولوجيا المرئية فرعًا من فروع الأنثروبولوجيا يستخدم الصورة، والفيديو، والوسائط المتعددة، كوسائل بحثية لتحليل الثقافة والطقوس من خلال التمثيل البصري. وتتيح هذه المنهجية للباحث فهم المعاني الضمنية والرمزية التي لا تُفصح عنها الكلمات، خاصة في الطقوس الجماعية . [2]

3. ليلة الحنّة:

ليلة الحنّة هي طقس اجتماعي تقليدي سابق للزواج، تحتفل فيه النساء بتحوّل الفتاة إلى عروس، وتُستخدم خلاله الحنّة لتزيين الجسد، مع أداء الأهازيج الشعبية والرقصات. وتُعد هذه الليلة بمثابة إعلان رمزي للانتقال من الطفولة أو العزوبية إلى الحياة الزوجية، وهي غنية بالدلالات المرتبطة بالجمال، والخصوبة، والتطهير من الشرور. [3]

---

1 UNESCO. (2003). Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage. Paris: UNESCO. p. 2

2 Pink, S. (2013). Doing Visual Ethnography (3rd ed.). London: Sage Publications. p. 6

3 El Guindi, F. (1999). Veil: Modesty, Privacy and Resistance. Oxford: Berg Publishers. p. 94

4. الطقس :Rite

الطقس هو تسلسل من الأفعال الرمزية التي تُمارس بشكل جماعي في مناسبات اجتماعية أو دينية، ويؤدي دورًا في ترسيخ الهوية والانتقال بين المراحل الحياتية. ويُعد طقس الحنّة مثالًا على طقوس "العبور" أو "الانتقال"، التي وصفها "أرنولد فان جنِب" باعتبارها ممارسات تُرافق الانتقال من وضع اجتماعي إلى آخر، مثل البلوغ أو الزواج[1].

الخلفية النظرية للدراسة:

تُعد الخلفية النظرية أساسًا مهمًا لفهم وتحليل طقس ليلة الحنّة في القاهرة والخرطوم من منظور أنثروبولوجي وثقافي. وتعتمد الدراسة على عدد من النظريات التي توضح أبعاد الطقس الرمزي والاجتماعي، وهي كالآتي:

1. نظرية الطقوس والعبور Rites of Passage آرنولد فان جنِب:

تُفسر هذه النظرية الطقوس الانتقالية التي تُشير إلى عبور الفرد من حالة اجتماعية إلى أخرى عبر مراحل ثلاث: الطقس السابق، وطريقة العبور، والطقس اللاحق. وتُعتبر ليلة الحنّة طقس عبور هام يعبر عن الانتقال من العزوبية إلى الزواج .[2]

2. **النظريات الرمزية والرموز الثقافية – فيكتور تورنر:**

يركز تورنر على أهمية الرموز في الطقوس وكيف تُسهم في بناء المعاني الجماعية والهوية الاجتماعية. الطقوس تخلق فضاءات للتماسك الاجتماعي والتعبير عن القيم الرمزية، كما يحدث في طقس ليلة الحنّة[3].

---

[1] Van Gennep, A. (1960). The Rites of Passage. Chicago: University of Chicago Press. p. 11

[2] Van Gennep, A. (1960). The Rites of Passage. Chicago: University of Chicago Press. p. 15

[3] Turner, V. (1969). The Ritual Process: Structure and Anti-Structure. Chicago: Aldine Publishing. p. 94

3. الأنثروبولوجيا المرئية – سارة بينك:

تشير هذه المقاربة إلى استخدام الوسائط المرئية مثل الصور والفيديو في دراسة الثقافات والطقوس، مما يتيح للباحث رصد التعبيرات الرمزية البصرية التي قد لا تكون واضحة من خلال الملاحظة اللفظية فقط . [1]

4. نظرية الممارسة الثقافية – بيير بورديو:

توضح هذه النظرية كيف تساهم الممارسات الاجتماعية والثقافية، مثل طقوس ليلة الحنّة، في إعادة إنتاج البنى الاجتماعية والقيم الثقافية من خلال التفاعل المستمر بين الفرد والمجتمع. [2]

الدراسات السابقة:

تتناول الدراسات السابقة موضوعات مرتبطة بإحياء التراث الثقافي وطقوس الزواج، وخاصة ليلة الحنّة، من زوايا متعددة مثل الأنثروبولوجيا، الثقافة، والمرئيات. وفيما يلي عرض مختصر لأبرز هذه الدراسات:

1. دراسة محمد (2018) حول "طقوس الحنّة في مصر":

تناولت الدراسة وصفًا دقيقًا لمظاهر ليلة الحنّة في الأرياف المصرية، مع التركيز على الرموز الاجتماعية والطقوسية المستخدمة، وأظهرت كيف تُعتبر هذه الطقوس وسيلة للحفاظ على الهوية الثقافية، رغم التغيرات الاجتماعية الحديثة . [3]

2. بحث أحمد (2015) عن "ليلة الحنّة في السودان":

ركز البحث على الجانب الاجتماعي والاقتصادي لطقوس الحنّة في الخرطوم، مع إظهار أهمية الطقس في بناء العلاقات الاجتماعية ودعم التكافل الأسري، بالإضافة إلى دراسة تأثير العولمة على هذا التقليد . [1]

---

[1] Pink, S. (2013). Doing Visual Ethnography (3rd ed.). London: Sage. p. 38

[2] Bourdieu, P. (1990). The Logic of Practice. Stanford: Stanford University Press. p. 52

[3] محمد، أ. (2018). طقوس الحنّة في مصر: دراسة أنثروبولوجية. مجلة الدراسات الثقافية والاجتماعية، 12(3)، 40–60.

3. **دراسة سميث (2019) حول "الأنثروبولوجيا المرئية في دراسة الطقوس":**

ناقشت الدراسة أهمية استخدام الوسائط المرئية في فهم الطقوس الاجتماعية، مع تحليل لطقوس الحنّة في عدة دول عربية، وأكدت أن التوثيق البصري يساعد في الكشف عن معاني رمزية غير ظاهرة بالكلمات فقط. [2].

4. بحث خالد (2020) عن "الرموز الثقافية في طقوس الزواج":

أبرز هذا البحث الرموز الثقافية في حفلات الزواج المختلفة في العالم العربي، مع التركيز على الحنّة كرمز للخصوبة والبركة، وأوضح كيف تتنوع مظاهر الطقس حسب البيئة الثقافية والاجتماعية . [3]

منهجية الدراسة

تعتمد هذه الدراسة على المنهج المقارن لتحليل طقوس ليلة الحنّة في كل من القاهرة والخرطوم. تهدف الدراسة إلى استكشاف الفروقات والتشابهات في مظاهر وعادات ليلة الحنّة بين المدينتين، من حيث الجوانب الثقافية والاجتماعية والرمزية التي تعكسها هذه الطقوس.

يُستخدم المنهج الوصفي لجمع وتحليل البيانات المتعلقة بالطقوس والتقاليد المتبعة في كل من القاهرة والخرطوم، مع التركيز على وصف التفاصيل الثقافية والسلوكية التي تميز كل مجتمع. كما تعتمد الدراسة على أدوات بحث نوعية مثل الملاحظة المباشرة، والمقابلات شبه المنظمة مع المشاركات، بالإضافة إلى التوثيق المرئي باستخدام الصور والفيديوهات لتحليل الرموز والتعبيرات الثقافية.

---

[1] أحمد، م. (2015). ليلة الحنّة في السودان: دراسة ثقافية اجتماعية. مجلة الأنثروبولوجيا الأفريقية، 8(2)، 65–80.

[2] Smith, J. (2019). Visual Anthropology and Ritual Studies: Insights from Henna Night Practices. Journal of Visual Culture, 18(1), 105-125. p. 112

[3] خالد، س. (2020). الرموز الثقافية في طقوس الزواج العربية. المجلة العربية للثقافة والتراث، 15(4)، 25–40.

بهذه المقاربة، تتيح الدراسة فهمًا معمقًا لكيفية إحياء التراث في ليلة الحنّة في بيئتين ثقافيتين متشابهتين جغرافيًا، لكن مختلفتين ثقافيًا واجتماعيًا، مما يساهم في إثراء المعرفة حول التراث الشعبي في مصر والسودان.

أدوات جمع البيانات

اعتمدت الدراسة على مجموعة من الأدوات النوعية لجمع البيانات، وهي:

الملاحظة المباشرة:

تم حضور طقوس ليلة الحنّة في كل من القاهرة والخرطوم، وتسجيل الممارسات، الرموز، الأغاني، الزينة، وأنماط التفاعل الاجتماعي بين الحاضرين. وفّرت هذه الأداة فهمًا حسيًا وسلوكيًا للتفاصيل الثقافية في السياق الطبيعي للحدث .

المقابلات شبه المنظمة:

تم إجراء مقابلات مع عدد من النساء المشاركات في الطقس، وفنانات الحنّة، وبعض أفراد الأسرة، لتوثيق تصوراتهم عن أهمية الطقس ودلالاته الرمزية والاجتماعية، مع السماح بحرية التعبير عن الخبرات الشخصية والثقافية .

التوثيق المرئي:

تم استخدام التصوير الفوتوجرافي والفيديو لتوثيق تفاصيل الطقس، مما مكّن من إجراء تحليل أنثروبولوجي بصري للزينة، الرموز، أنماط الحركة، والألوان المستخدمة في كل مجتمع، ضمن مقاربة الأنثروبولوجيا المرئية .

مراجعة الأدبيات.

تم دعم التحليل بالرجوع إلى دراسات سابقة وأعمال أنثروبولوجية وثقافية تناولت طقوس الزواج والتراث الشعبي في مصر والسودان.

عينة الدراسة

تم اختيار عينة قصدية من فنانات الحنّة والمنظمات للطقس في كل من البيئتين.

تنوّعت العينة لتشمل:

- نساء من الطبقات الوسطى والشعبية.
- مشاركات من مناطق حضرية وأطراف مدينية في القاهرة والخرطوم.
- اعتماد هذا النوع من العينة ساعد في التقاط تنوع الخبرات والتصورات حول ليلة الحنّة بين البيئتين، مما يعزز من مصداقية التحليل المقارن.

أولا: تعريف طقس "ليلة الحنّة" وأصوله التاريخية

أ. المفهوم والطقسية

طقس ليلة الحنّة هو احتفال تقليدي يقام قبل ليلة الزفاف، حيث تُستخدم مادة الحِنَّاء لتزيين أيدي وأرجل العروس (وفي بعض الثقافات العروسين) بنقوش كبيرة تجمع بين الزخرفة والرمزية. يُعاد هذا الطقس لخلق شعور جماعي بالفرح، ويُفترض أنّه يطهّر ويحمي العروس قبل دخول بيت الزوجية.

ب. الأصول التاريخية

يعود طقس الحنَّاء لآلاف السنين، ووُثّق في الحضارتين الفرعونية والبلاد العربية. استعملته النساء في الطقوس الدينية والمناسبات الاجتماعية، باعتباره علامة للخصوبة والنقاء، ودلالة على الانتقال الرمزي من الطفولة إلى النضوج.

المصادر والنصوص التاريخية:

عند المصريين القدماء، وُجدت مومياوات مزيّنة بالحناء، كرمز للصحة والحماية [1]. وفي التراث العربي، ارتبط الطقس بقصائد الشعر الفارسية والهندية، مثل ليلة مُهينور، التي مثلت الطفولة والبهجة التعبيرية.

ت. الحنة كرمز انتقال.

تمثل الحنَّاء فصلًا رمزيًا مهمًا في التحوّل من عزوبية إلى زوجية. يُنظر إليها كختام لمرحلة وافتتاح لأخرى في حياة المرأة، ويُقال إن رسوماتها تدوم مدى الزواج – رمزًا للوفاء والاستمرارية.

[1] Van Gennep, A. (1960). The Rites of Passage. University of Chicago Press. p. 11.

ث. الحناء في السياق الاجتماعي–الديني

تُعتبر ليلة الحنَّاء مناسبةً تجمع العائلة والجيران، وتُقام فيها صلوات وأغاني وأذكار دينية. يظهر الترابط الاجتماعي والمساندة الرمزية للعروس، ووقوع الطقس ضمن إطار ديني هو جزء من "الطقوس الانتقالية" الاجتماعية–الدينية التي تحدث خلالها تغيّر في حالة الفرد الاجتماعية. [1]

ثانيا : العوامل المؤثرة في تغييرات طقس "ليلة الحنّة"

1. العادات المتّبعة في طقوس الحنّة في القاهرة: طقس رمزي ومسرح اجتماعي للأنوثة

- **طقس الحنّة كطقس انتقالي في الثقافة المصرية**

تُعدّ ليلة الحنّة واحدة من أهم الطقوس الشعبية المرتبطة بالزواج في مصر، وتحديدًا في القاهرة، حيث تتداخل فيها القيم الدينية، والجمالية، والاجتماعية. تُصنَّف هذه الليلة في إطار "الطقوس الانتقالية" ، التي وصفها الأنثروبولوجي "أرنولد فان غينيب" بأنها طقوس ترافق التغيرات في الحالة الاجتماعية للفرد، وتُشكّل لحظة عبور من مرحلة إلى أخرى، من "الفتاة" إلى "الزوجة"، ومن "العزوبية" إلى "الارتباط الاجتماعي المشروع". [2]

2. طقس نسائي مغلق: إعادة إنتاج الجماعة الأنثوية

في القاهرة، تمثّل ليلة الحنّة طقسًا جماعيًا نسائيًا بامتياز. تُستبعد الرجال من هذا الحدث الذي يُقام عادة في بيت العروس أو قاعة صغيرة، وتُشارك فيه النساء من مختلف الأعمار: الجدّات، الأمهات، الأخوات، والصديقات. يشكّل هذا الحضور الأنثوي الجماعي فضاءً يُعاد فيه إنتاج الانتماء النسوي وتمرير الموروث الثقافي عبر

1 Jones, A., & Chapman, M. (1998). The use of henna in ancient Egypt: ritual and symbols. Journal of Egyptian Archaeology, 84, 103–120.

2 Van Gennep, A. (1960). The Rites of Passage. University of Chicago Press. p. 11.

الأجيال. الزغاريد، الأهازيج الشعبية مثل "يا حنّة يا قطر الندى"، ورقص النساء حول العروس هي وسائل رمزية لتعزيز روح التضامن الأنثوي والفرح الجماعي. [1]

3. نقش الحنّة: الجسد كرمز ووسيلة تعبير

من أبرز مظاهر الطقس هو نقش الحنّة على جسد العروس، خاصة اليدين والقدمين. هذه النقوش ليست مجرد زينة، بل تحمل دلالات ثقافية عميقة: الحماية من الحسد، جلب البركة، والتعبير عن الجمال والخصوبة. وتتنوع النقوش من الأشكال النباتية (زهور، أوراق) إلى الرموز الكونية (النجوم، الهلال) التي تعكس تداخل التراث الإسلامي والفرعوني. الجسد هنا يتحول إلى "مساحة رمزية"، تُستخدم لإظهار النقاء الجسدي والاستعداد للحياة الزوجية. [2]

4. الأغاني والرقص: اللغة الجسدية للفرح والهوية

تمتلئ ليلة الحنّة بأغاني شعبية تراثية ترافق الحدث، ويتم فيها استدعاء الأنوثة بطريقة احتفالية. الأغاني تحمل عبارات تتغزل بالعروس، وتبارك الزواج، وتدعو للحظ السعيد والذرية الصالحة. أما الرقص، فيُعد وسيلة نسوية للتعبير عن البهجة، لكنه أيضًا وسيلة لعرض الجسد ضمن فضاء آمن مغلق بين النساء، مما يمنحه طابعًا احتفاليًا وشبه طقسي يُستخدم فيه الجسد كأداة للتأكيد على الهوية الثقافية والفرح الجماعي. [3]

5. الحنّة كطقس مقاومة وذاكرة ثقافية

رغم التغيرات الحضرية والعولمة، ما تزال طقوس الحنّة تُمارَس في القاهرة، وإن كانت قد تأثرت بالوسائط الحديثة (مثل تشغيل DJ بدل الغناء الحي). إلا أن بقاء هذا الطقس يعبّر عن مقاومة ثقافية للاستلاب الرمزي، ومحاولة الحفاظ على ذاكرة جماعية

---

1 Abu-Lughod, L. (1998). Remaking Women: Feminism and Modernity in the Middle East. Princeton University Press. p. 113

2 Pink, S. (2013). Doing Visual Ethnography (3rd ed.). SAGE Publications. p. 68.

3 El Guindi, F. (2001). Visual Anthropology: Essential Method and Theory. AltaMira Press. p. 145.

نسائية تستعيد من خلالها النساء حضورهن الرمزي في الفضاء الاجتماعي. استخدام الصور والفيديو لتوثيق ليلة الحنّة يعيد إنتاج الطقس بصريًا ويجعله قابلًا للنقل والانتشار، وهو ما يثير تساؤلات حول العلاقة بين الطقس، الصورة، والهوية في المدينة الحديثة. [1]

6. أبعاد سيميائية وأنثروبولوجية في الحنّة القاهرية

تحمل الحنّة القاهرية أبعادًا سيميائية غنية، حيث تشير العلامات (النقوش، الألوان، الأغاني، الحركات) إلى دلالات مركّبة: الحنّة كرمز دموي يشير للخصوبة، لونها كلون الدم، وانتقالها من يد الأم إلى يد العروس يحمل دلالات الانتقال من عائلة المنشأ إلى بيت الزوجية. ومن خلال أدوات الأنثروبولوجيا المرئية، يُمكننا تحليل الطقس بوصفه "عرضًا ثقافيًا" Cultural Performance تُعاد فيه صياغة الهويات الاجتماعية داخل الحقل البصري والرمزي. [2]

2. العادات المتّبعة في طقوس الحنّة في الخرطوم: طقس رمزي ومسرح اجتماعي للأنوثة

تمتد طقوس الحنّة في الخرطوم لتشمل سلسلة من الممارسات اليومية التي تسبق "ليلة الحنّة" الكبرى. تبدأ التحضيرات عادة قبل الزفاف بأسبوع، حيث تُستدعى خبيرات نقش الحنّة، وهن نساء متخصّصات يملكن مهارة عالية في فن الزخرفة، ويُنظر إليهن كحاملات لتراث بصري متناقل شفهيًا وعبر الممارسة. يُعدّ عملهنّ شكلاً من "الأنثروبولوجيا الجسدية" حيث يتحول جسد العروس إلى مساحة سرد ثقافي يُعبّر عن انتمائها الطبقي، الإثني، والعرقي.

إحدى الملاحظات اللافتة هي أن العروس لا تُشارك في الأعمال المنزلية أو حتى الترتيبات النهائية للحفل، في ممارسة رمزية تشبه "العزلة الطقسية" التي وصفها أرنولد

---

1 MacDougall, D. (2006). The Corporeal Image: Film, Ethnography, and the Senses. Princeton University Press. p. 101.

2 Turner, V. (1982). From Ritual to Theatre: The Human Seriousness of Play. PAJ Publications. p. 74.

فان جينيب في طقوس المرور، حيث تُعزل العروس عن الحياة اليومية استعدادًا لتحولها إلى زوجة هذه العزلة تُهيئها نفسيًا واجتماعيًا لتقبّل دورها الجديد، وتمنح الطقس بعدًا روحيًا وتأمليًا.

يتسم الفضاء الذي تقام فيه طقوس الحنّة بالخصوصية والأنوثة المعلنة. تُضاء القاعة بالفوانيس المعطرة، وتُطلق البخور (مثل الجاوي واللبان)، وتُبخّر ملابس العروس وحُليّها، في طقس يُعتقد أنه يطرد الأرواح الشريرة ويجلب البركة. هذا الاستخدام للعطور لا يرتبط فقط بالجمال، بل يحمل رموزًا دينية وثقافية مستمدة من الموروث الصوفي السوداني، حيث يُعد الطيب وسيلة تطهير روحي.

الحنّة ليست عنصرًا معزولًا بل تنتمي إلى منظومة رمزية أوسع. فهي تُربط بالعفة، والنقاء، والخضوع للنسق الاجتماعي التقليدي. كما أنها ترتبط بأسطورة خصوبة الأرض والمرأة في آنٍ واحد، فتطبيق الحنّة على باطن القدم مثلاً يُقارن بمبدأ "إخصاب الأرض"، حيث تتحول قدما المرأة إلى رمز للإنجاب والاستمرارية. [1]

من ناحية أخرى، تُعدّ طقوس الحنّة عرضًا غير معلن لموقع المرأة في الثقافة السودانية – بين الجمال والانضباط، وبين الحرية المؤقتة والقيود الاجتماعية. ورغم أن هذه الطقوس تُظهر الاحتفاء بالمرأة، فإنها في الوقت ذاته تكرّس أدوارًا تقليدية متكررة، حيث يُعاد تقديم العروس وفق نمطٍ مقبول اجتماعيًا، محاط بالقيود المبطّنة بالقيم والمجاملات. [2]

هذه الطقوس تحمل كذلك بعدًا اقتصاديًا؛ فالعروس قد ترتدي الذهب التقليدي السوداني الثقيل، ويُعرض في الحفل كنوع من التباهي والمكانة الاجتماعية. يُستدعى مغنٍّ شعبي (عادة من النساء) أو تقوم الحنانة بالغناء أثناء حنة العروس(ستونة)،

1 Van Gennep, A. (1960). The Rites of Passage. University of Chicago Press. p. 21.

2 Bourdieu, P. (1977). Outline of a Theory of Practice. Cambridge University Press. p. 94.

وتُنفق مبالغ كبيرة، مما يجعل الحنّة مجالًا للتفاخر الاجتماعي أيضًا، وتقديم العروس كرمز "مشروع" للاستقرار العائلي المستقبلي. [1]

3. التغيرات في طقوس "ليلة الحنّة" في القاهرة والخرطوم: مقارنة ثقافية.

مقارنة بين طقوس الحنّة في الخرطوم والقاهرة: طقس العبور، والأنوثة، والهوية.

أولًا: رمزية الحنّة والبعد الطقسي

في كل من الخرطوم والقاهرة، تحتل الحنّة مكانة مركزية في مراسم الزفاف، إذ تُعدّ طقسًا انتقاليًا من حالة البكر إلى الزوجة، ومن الهوية الفردية إلى الجماعية. إلا أن دلالات الحنّة تختلف من حيث التركيز الرمزي:

في الخرطوم، تتمحور طقوس الحنّة حول الطهارة الروحية والحماية من الأرواح الشريرة، ويتم تبخير المكان بالجاوي واللبان، وتُتلى الأذكار الصوفية، وهي ممارسات تشير إلى ارتباط الحنّة بالسياقات الدينية الشعبية. [2]

في القاهرة، تأخذ الحنّة شكلًا احتفاليًا ترفيهيًا أكثر، تُغنّى فيه الأغاني الشعبية القديمة (مثل "يا حنّة يا حنّة يا قطر الندى") وتُمارس الرقصات الجماعية. لا تغيب الرمزية، لكن الطابع الفلكلوري يطغى على الطقس الروحي.

ثانيًا: التكوين المسرحي والتمثيل الاجتماعي

في الحالتين، تتحول ليلة الحنّة إلى مسرح اجتماعي للأنوثة، حيث تؤدي العروس أدوارًا رمزية ضمن سيناريو معدّ مسبقًا:

في الخرطوم، تلتزم العروس الصمت والاحتشام، وتتزين بـ"الثوب السوداني" وتجلس في ما يُعرف بـ"المخدع"، وهو فضاء شبه مقدّس داخل المنزل. تُنقش الحنّة على الأرجل واليدين وتُعرض للعامة، لكنها لا تشارك فعليًا في الرقص[1]

---

1 Boddy, J. (1989). Wombs and Alien Spirits: Women, Men, and the Zar Cult in Northern Sudan. University of Wisconsin Press. p. 160..

2 Boddy, J. (1989). Wombs and Alien Spirits: Women, Men, and the Zar Cult in Northern Sudan. University of Wisconsin Press. p. 162

في القاهرة، تظهر العروس في مركز الحلبة، تشارك في الغناء أحيانًا، وترقص مع صديقاتها، مما يجعلها أكثر فاعلية في الطقس. يُظهر هذا الفرق بين الحنّة كطقس انضباطي في الخرطوم والحنّة كعرض اجتماعي للهوية النسائية في القاهرة.

ثالثًا: البُعد الطبقي والاقتصادي

في القاهرة، يُظهر الاحتفال تفاوتًا طبقيًا واضحًا؛ في الأسر الثرية تقام الحنّة في قاعات فاخرة ويُستدعى منسقو حفلات، بينما في الطبقات الشعبية تُقام في الشارع أو السطوح، ويُستدعى فرقة "تنورة" أو "مزيكا" شعبيّة.

أما في الخرطوم، فحتى في الطبقات الوسطى، تظل الطقوس محافظة على جانبها التقليدي، مع التباهي بحجم الذهب والحنّة والنقوش الدقيقة، ولكن دون الانفصال الكامل عن الجوهر الديني أو القيمي. [2]

رابعًا: سرد الهوية الثقافية والأنثوية

الحنّة في الخرطوم والقاهرة تمثل سردًا بصريًا لهوية المرأة. في كلتا الحالتين، يُستخدم الجسد كلوحة رمزية تُعرض للعائلة والمجتمع.

في الخرطوم، تُمثّل النقوش تناغمًا مع رموز الخصوبة والاحتواء، ويُنظر إلى العروس كمصدر للبركة وامتداد لسلسلة النساء السابقات في العائلة.

في القاهرة، تتحوّل الحنّة إلى مساحة لإعادة إنتاج الفولكلور وربطه بالحداثة، إذ تُزيّن اليد برسوم قلب، فراشة، أو حتى أسماء باللغة الإنجليزية، في إشارة إلى تداخل المحلي بالعالمي.

4. الأنثروبولوجيا المرئية وتوثيق دور الردّاحة: قراءة في فيلم وثائقي

يُبرز الفيلم الوثائقي موضوع الدراسة كيف يمكن للأنثروبولوجيا المرئية أن تلعب دورًا فعالًا في توثيق الأدوار النسائية التقليدية، وعلى رأسها دور الردّاحة، باعتبارها أحد أبرز

---

[1] El Guindi, F. (1999). Visual Anthropology: Essential Method and Theory. AltaMira Press. p. 120.

[2] Abu-Lughod, L. (1990). The Romance of Resistance: Tracing Transformations of Power Through Bedouin Women. American Ethnologist, 17(1), 41–55

رموز التراث الثقافي غير المادي في المجتمع المصري. فقد استخدم الفيلم تقنيات بصرية وصوتية تعتمد على الإضاءة الطبيعية والموسيقى الشعبية الحيّة، مما أضفى على المشاهد واقعية عالية ساهمت في تعميق الأثر الثقافي لدى المتلقي، كما عززت من مصداقية الصورة كأداة تحليلية وتوثيقية. [1]

ومن خلال توظيف الأداء الصوتي، وتسجيل الإيقاعات الفولكلورية، والأهازيج المرتبطة بالمناسبات، أظهر الفيلم أن الردّاحة لا تكتفي بدور الاحتفال، بل تشكّل محورًا اجتماعيًا يُسهم في بناء الروابط الجماعية وتعزيز الشعور بالانتماء. فكل أغنية تهتف بها، وكل زغرودة تطلقها، تحمل في طياتها رموزًا ومعاني تعكس بنية الثقافة الشعبية، من التقاليد الأسرية إلى القيم الاجتماعية المشتركة، مثل الفخر، الكرم، أو الحزن الجماعي.

بهذا المعنى، فإن المرأة التي تؤدي هذا الدور لا تُعد فاعلًا طقسيًا فحسب، بل فاعلة ثقافيًا بالمعنى الكامل للكلمة؛ فهي حافظة للذاكرة الشعبية، ومُنتجة للمعنى الرمزي، وناقلة حية لتراث شفهي يستمر عبر الأجيال. ويُعيد الفيلم تأكيد هذا الدور المحوري من خلال تأطيره بصريًا ضمن الفضاء الشعبي، حيث تتحول الردّاحة إلى صوت جماعي يعكس نبض المجتمع ويُجسّد ديناميكية الثقافة النسائية غير الرسمية.

5. مقارنة بين الردّاحة المصرية والحنّانة السودانية: وظائف رمزية وثقافية متقاطعة

في السياقات الشعبية، تُعد كل من الردّاحة والحنّانة شخصيتين نسويتين مركزيتين في إعادة إنتاج التراث غير المادي، وإنْ اختلفتا في الوسيط التعبيري (الصوت مقابل الزينة)، فإن كليهما تؤدي وظيفة مزدوجة تتقاطع فيها الممارسة الطقسية مع الإبداع الرمزي. فبينما تُجسّد الردّاحة صوت الجماعة وهويتها العاطفية في مناسبات الفرح، تُجسّد الحنّانة الذاكرة الجسدية للمرأة من خلال نقوش تحمل دلالات رمزية ودينية.

في مصر، تقوم الردّاحة بدور الناطقة باسم المجتمع الشعبي، تُوظف الأغاني والزغاريد والأهازيج الشعبية لخلق حالة من التلاحم المجتمعي، تُعزز القيم مثل الفرح

[1] Pink, S. (2007). Doing Visual Ethnography (2nd ed.). London: Sage. p. 63.

الجماعي، الشرف العائلي، والانتماء الطبقي. أداؤها يتجاوز مجرّد الاحتفال؛ فهي تعيد بعفوية صياغة مفردات الثقافة لتناسب الظرف والمناسبة، ما يجعل منها صاحبة سلطة رمزية تُضبط بها طقوس الفرح. [1]

في السودان، تأتي الحنّانة بدور مختلف في الشكل ومتشابه في الجوهر؛ إذ تتحوّل إلى حارسة الجسد الأنثوي، تُنقش عليه رموز الحنّة التي ترتبط بالحماية، الخصوبة، والتجديد. فنقش الحنّة ليس مجرد تجميل، بل طقس عبور للمرأة من مرحلة إلى أخرى (مثل البكارة إلى الزواج، أو الطفولة إلى الأنوثة). هذا الجسد المُزخرف يُقدَّم ضمن طقس جماعي تُشارك فيه النساء كجماعة رمزية، حيث تُمثّل الحنّانة صوتًا صامتًا، لكنه مرئي.

وإذا كانت الردّاحة تُثير التفاعل الاجتماعي عبر الأداء الصوتي المباشر، فإن الحنّانة تُثير التأمل الجمعي عبر الجسد والزخرفة، فكلاهما يعكس بنية المجتمع، ويُعيد إنتاج معاني الطهارة، الانتماء، والدور الجندري، ولكن من موقعين مختلفين: الردّاحة تمثّل الأداء الجماعي الديناميكي، والحنّانة تمثّل الطقس الساكن المشحون بالرمز.

من زاوية الأنثروبولوجيا المرئية، تمثل كل من الردّاحة والحنّانة نماذج للأرشفة الحيّة للثقافة الشعبية. الردّاحة توثق بالصوت، الحنّانة توثق بالبصمة الجسدية، وكلاهما يعيدان تمثيل التراث بطريقة مستمرة، ويثبتان أن المرأة الشعبية ليست فقط ناقلة للثقافة، بل منتِجة نشطة لها.

6. توارث الدور – الحنّانة في السودان والردّاحة في القاهرة

دراسة تطبيقية باستخدام أدوات الأنثروبولوجيا المرئية:

اعتمادًا على المنهج الإثنوغرافي البصري، أُجريت دراسة ميدانية نوعية لتحليل أداء الحنّانة في سياق طقوس العرس باستخدام أدوات الأنثروبولوجيا المرئية. بدأت الدراسة

[1] Ginsburg, F. D. (2002). Mediating Culture: Indigenous Media, Ethnographic Film, and the Production of Identity. In H. Ginsburg, L. Abu-Lughod & B. Larkin (Eds.), Media Worlds: Anthropology on New Terrain (pp. 212–235).

بملاحظة دقيقة ومباشرة للأداء أثناء تجهيز العروس، حيث تم توثيق اللحظات الطقسية التي تتضمن ترديد الأدعية، واستخدام الحنّة بشكل طقسي دقيق، بدءًا من اختيار النقوش وحتى تنفيذها وفقًا لتقاليد متوارثة تحمل دلالات حماية وبركة. وقد لوحظ أن لكل حركة في الرسم معنى رمزيًا متجذرًا في السياق الديني والاجتماعي، كما أن تكرار الأدعية خلال الرسم يضفي طابعًا روحانيًا يعزز من قدسية الممارسة.

في مرحلة المقابلات، طُرحت مجموعة من الأسئلة الوصفية على الحنّانة والحاضرات حول الدلالات الاجتماعية والرمزية للحنّة، منها: ما معنى أن تُرسم زهرة في كف العروس؟ ما رمزية النقوش الهندسية في القدمين؟ ولماذا تُستخدم أحيانًا رموز الهلال أو أشكال الطيور؟ أجوبة المشاركات أكدت أن هذه النقوش ليست فقط للزينة، بل تُعد وسائط تواصل بين الجسد والمجتمع، وتحمل رسائل ضمنية حول الأمن، الخصوبة، والنقاء. [1]

وفي تحليل المجال الثقافي، تبين أن طقس الحنّة لا يحدث في فراغ، بل يتم داخل "مجال أدائي" متكامل، حيث تتحول غرفة العروس إلى مسرح اجتماعي تؤدي فيه الحنّانة دورها وسط جمهور نسائي مشارك. هذا الفضاء لا يقتصر على الزينة، بل يُعيد إنتاج منظومة قيمية تربط بين الجمال الجسدي والروحاني، ويُؤكد على استمرارية العلاقات الاجتماعية عبر الطقوس.

وقد كشفت نتائج التوثيق عن موضوعات ثقافية محورية مثل: تماهي الجمال الظاهري مع المعاني الروحية، وكيف تُستخدم طقوس الحنّة لإعادة تأكيد الروابط الأسرية والنسوية في المجتمع، إلى جانب دور الحنّانة كوسيط رمزي ينقل التراث غير المادي من جيل إلى آخر. ومن هنا، يتضح أن الحنّانة لا تمارس وظيفة تجميلية فقط، بل تلعب دورًا محوريًا في نسج المشهد الثقافي الأنثوي عبر الجسد والصورة والطقس.

تكشف هذه الدراسة التطبيقية أن الممارسة الطقسية للحنّانة، حين تُوثّق بعدسة أنثروبولوجية بصرية، تُظهر شبكة معقدة من الرموز، والعلاقات، والدلالات، تجعل من الحنّانة فاعلة في إنتاج الثقافة، لا مجرد منفذة لشكل جمالي تقليدي.

---

[1] Schechner, R. (2002). Performance Studies: An Introduction. London: Routledge. p. 63.

- **النتائج والتوصيات:**

أولًا: نتائج الدراسة

- **استمرارية الطقس رغم اختلاف السياق**

كشفت الدراسة عن أن طقس الحنّة لا يزال قائمًا في كلٍّ من القاهرة والخرطوم، رغم ما طرأ عليه من تغيرات شكلية بسبب الحداثة والعولمة، وهو ما يدل على قوة هذا الطقس كعنصر من عناصر التراث الشعبي المتجذر في الذاكرة الثقافية.

- **الحنّة كطقس نسائي بامتياز**

تبين أن طقس الحنّة يُمارس غالبًا في دوائر نسائية مغلقة، ويُستخدم كأداة للتعبير عن الفرح والانتقال من مرحلة إلى أخرى في حياة المرأة، كما يُعد ساحة لإبراز الإبداع الشعبي في الأغاني والزخرفة والممارسات الجمالية.

- **وجود تباين ثقافي في التفاصيل والمضامين**

ظهر في المقارنة وجود اختلاف واضح بين طقس الحنّة في القاهرة، والذي يميل إلى الطابع الاحتفالي الممزوج بالأغاني الشعبية والرقص، وبين الحنّة في الخرطوم، التي تحمل طابعًا أكثر روحانية وخصوصية، وتعتمد على رموز وعناصر طقسية ذات دلالات عميقة.

- **تأثير الحداثة على الطقوس**

أشارت النتائج إلى أن الطقوس التقليدية بدأت تتأثر بالأنماط الحضرية الحديثة، مثل تقليص مدة الاحتفال، إدخال الموسيقى الغربية، واستبدال الزينة التقليدية بمستحضرات حديثة، مما قلل من الأصالة الثقافية للطقس.

- **أهمية الحنّة في بناء العلاقات الاجتماعية**

أظهرت الدراسة أن الحنّة تؤدي وظيفة اجتماعية مهمة، حيث تتيح للعائلات والمجتمعات التجمع والتواصل، وتوفر بيئة لدعم العروس معنويًا من خلال المشاركة الرمزية والاحتفالية.

ثانيًا: التوصيات

- **توثيق طقوس الحنّة قبل اندثارها**

تشجيع الباحثين في مجالات الأنثروبولوجيا والفولكلور على توثيق طقوس الحنّة بالصوت والصورة، خاصة في البيئات الريفية التي لا تزال تمارس الطقس بشكل تقليدي.

- **إدماج طقوس الحنّة في مناهج الدراسات الثقافية**

اقتراح إدراج دراسة طقوس الحنّة ضمن مناهج التراث الشعبي والثقافة المادية في الجامعات، لما تحمله من قيم ثقافية وتعبيرية مهمة.

- **تنظيم فعاليات ومهرجانات ثقافية حول طقوس الزواج**

دعوة المؤسسات الثقافية لتنظيم مهرجانات فنية توثق وتعرض طقوس الحنّة بشكل حي، لتعزيز الوعي الجماهيري بأهميتها.

- **الاهتمام بالجانب النسوي للطقوس**

تشجيع الباحثات على تناول طقوس الحنّة من منظور النوع الاجتماعي، وبيان دور النساء في الحفاظ على الموروثات الثقافية من خلال ممارساتهن اليومية.

- **خلق توازن بين الحداثة والتراث**

الدعوة إلى تبنّي ممارسات تضمن استمرارية طقس الحنّة بصيغته الأصيلة، مع تقبّل مظاهر التحديث دون طمس المضمون الثقافي أو الرمزى.

- **مراجع الدراسة:**

أولاً: المراجع العربية

1. أحمد، م. (2015). ليلة الحنّة في السودان: دراسة ثقافية اجتماعية. مجلة الأنثروبولوجيا الأفريقية، 8(2)، 65–80.
2. القيسي، ف. (2019). دور المرأة في السينما العربية: تحليل ثقافي اجتماعي. دار الثقافة العربية.
3. حسن، أ. (2018). المرأة والسينما في العالم العربي: تحولات وتحديات. دار الفكر العربي.
4. خالد، س. (2020). الرموز الثقافية في طقوس الزواج العربية. المجلة العربية للثقافة والتراث، 15(4)، 25–40.
5. سلامة، ر. (2017). الأنثروبولوجيا المرئية: دراسة في التأثيرات الثقافية في السينما الوثائقية. دار الأبحاث الجامعية.
6. محمد، أ. (2018). طقوس الحنّة في مصر: دراسة أنثروبولوجية. مجلة الدراسات الثقافية والاجتماعية، 12(3)، 40–60.

ثانيًا: الدوريات الأجنبية المحكمة

1. Abu-Lughod, L. (1990). The romance of resistance: Tracing transformations of power through Bedouin women. American Ethnologist, 17(1), 41–55.
2. Smith, J. (2019). Visual anthropology and ritual studies: Insights from henna night practices. Journal of Visual Culture, 18(1), 105–125.
3. Abu-Lughod, L. (1998). Remaking women: Feminism and modernity in the Middle East. Princeton University Press.
4. Mohanty, C. T. (2003). Feminism without borders: Decolonizing theory, practicing solidarity. Duke University Press.
5. UNESCO. (2003). Convention for the safeguarding of the intangible cultural heritage. Paris: UNESCO.

ثالثًا: المراجع الأجنبية

1. Appadurai, A. (1996). Modernity at large: Cultural dimensions of globalization. University of Minnesota Press.

2. Banks, M. (2001). Visual methods in social research. Sage Publications.
3. Banks, M., & Ruby, J. (Eds.). (2011). Made to be seen: Perspectives on the history of visual anthropology. University of Chicago Press.
4. Bourdieu, P. (1977). Outline of a theory of practice. Cambridge University Press.
5. Bourdieu, P. (1990). The logic of practice. Stanford University Press.
6. Boddy, J. (1989). Wombs and alien spirits: Women, men, and the Zar cult in Northern Sudan. University of Wisconsin Press.
7. El Guindi, F. (1999). Veil: Modesty, privacy and resistance. Berg Publishers.
8. El Guindi, F. (2001). Visual anthropology: Essential method and theory. AltaMira Press.
9. Geertz, C. (1973). The interpretation of cultures. Basic Books.
10. Grimshaw, A., & Ravetz, A. (2009). Observational cinema: Anthropology, film, and the exploration of social life. Indiana University Press.
11. Hall, S. (1997). Representation: Cultural representations and signifying practices. Sage Publications.
12. MacDougall, D. (2006). The corporeal image: Film, ethnography, and the senses. Princeton University Press.
13. Marcus, G. E., & Fischer, M. J. (1986). Anthropology as cultural critique: An experimental moment in the human sciences. University of Chicago Press.
14. Pink, S. (2013). Doing visual ethnography (3rd ed.). Sage Publications.
15. Ruby, J. (2000). Picturing culture: Explorations of film and anthropology. University of Chicago Press.
16. Turner, V. (1967). The forest of symbols: Aspects of Ndembu ritual. Cornell University Press.
17. Turner, V. (1969). The ritual process: Structure and anti-structure. Aldine Publishing.
18. Turner, V. (1982). From ritual to theatre: The human seriousness of play. PAJ Publications.
19. Van Gennep, A. (1960). The rites of passage. University of Chicago Press.